عناقيد عنب

عناقيد عنب

تأليف

سميرة خالد عرباسي

دار الكتاب الثقافي

المقدمة

ربما يتساءل أحدنا لماذا نكتب؟!!.. هنا يتبادر إلى ذهني جوابًا مختلفًا وذلك حسب تخيلي وتصوري لمفهوم الكتابة... في الحقيقة أني أجد الكتابة تشبه محاولة تحرير المدن والبلدان أو استكشافها؛ إذ أننا حين نكتب نطلق الحرية لأفكارنا، وأحاديث أرواحنا، ومشاعرنا، وخواطرنا لنخرجها جميعًا إلى ضوء الشمس وفضاء السماء..

لذلك فإن الكاتب أو القارئ على حد سواء مشتركان في فعل التحرير أو الاستكشاف؛ فالكاتب بما يقدم هو الذي يفتتح مدينة عقله وروحه المحررة، والقارئ حين يقرأ هو الذي يزور تلك المدينة ويقيم فيها لبعض من الوقت في محاولات متتالية للانخراط في أفكار وشعور الكاتب...

لهذا فإني حين اعتنقت الكتابة فذلك ليس إلا لأني حررت ما بداخلي من الفلسفة والشعور، وأعطيته سلاح قلمي، وتوجته بتاج كلماتي... وهكذا تشكل إصداري الأول (عناقيد عنب)...

رسائل إلى صديق

* إلى صديقي الغائب

لِمَ تركتني هنا على حافة الأيام.. تدميني الذكريات.. لِمَ تركتني لتعصف بي الخيبات.. وأنت الذي طالما وعدتني ألا تفرقنا الظروف وأن لا يبدل ما بيننا الأيام؟!! لم تركتني مشدوهًا.. تعصرني الحيرة.. أنتظر منك جوابًا في كل يوم. من أنت ولم أتيت وكيف رحلت؟!! كربيع أخضر ما نلبث تزهر به قلوبنا ثم يمضي.. كقوس قزح بهيج الألوان بعد يومٍ ماطرٍ مفاجئ الظهور سريع الاختفاء، كحمامة أيكٍ تجلس على أحد نوافذنا تبعث السلام بأرواحنا وتحلق. أصبحتَ لا تعود إلا في هيئة حنين يمزقني، أو على شكلٍ حلمٍ مبعثرٍ، كأنه أحد مشاهد ذكريات الطفولة التي جمعتني بك..

لكنني ما زلت أحتفظ بك في جزء من داخلي.. يستيقظ في أحلامي.. فيتجلى نور ابتسامتك فتغمرني الطمأنينة.. ثم أصحو بعدها على غصة محملة بالعتب أنك رحلت.. لم يكن غيابك أمرًا

أعتاد عليه كما تظن.. بل إنه أقسى تلك الخيبات وأمرّ الغصات.. كم هو مؤلم هذا الفقد يترك فراغاً حتى في أكثر الأماكن ازدحاماً.

كنت دائماً أجدك أمامي كملاك حارس، كتفي الصامد الذي يسندني كلما أوشكت على الوقوع، تأخذ عني وجعي، تتقاسم معي حزني... رحلت الآن، ورحل عني ملاكي، وأصبحت ما أريد أن أقوله لك في كل لحظة، أقوله لنفسي... أعتدت أن اكتب لك كما لو أنك أمامي وأحدثك... بالحقيقة كتاباتي الموجهة لك ليست سوى أحاديث روحي لروحك... وليست إلا مهاتفة عقلي بكل ضجيجه وقلبي بكل ما يعترك بداخل خلجاته لعقلك ولقلبك... أكتب لعله يوما يصلك ما كتبت عبر أثير الأرواح... كل ذلك النضج التي قلدتني وسامه السنين أنت تشاركني مراسم تقليده في كل حين وفي كل تجربة...

*هناك ناس مثل العمر لا تتكرر مرتين وأنت منهم..

هناك ناس تعطينا اياهم الحياة مثل هدنة من معارك الحياة وأنت منهم... أو كهدية ترضية من الزمن... أو كنسمة باردة في يوم من أيام تموز وأنت منهم... أولئك تحديدًا سرعان ما نفارقهم.. وفي هذه ايضاً أنت منهم. هم كالصدف الحلوة.. كالحلم الجميل

العابر... لا يطول لقاؤنا بهم.. هم كبلابل الربيع في حياتنا... تهاجر سريعًا... ولا تطيل المكوث.... ربما يجب أن نتعلم أن نصبح بعدهم أكثر قوة وصلابة فكثيرًا ما كنا نتكئ عليهم حين تخذلنا قوانا....

الآن صرت على يقين أكثر أن الاشياء الجميلة لا تدوم طويلًا..

* فلتعلم يا صديقي أن الحياة لاتزال تضعك أمام خياراتها الصعبة.. كأن تتعلم ركوب الموج العالي أو أن تغرق.. أو أن تجدف بمركب حلمك حتى تصل إلى بر تحقيقه أو أن تنكس رايته للأبد....

هكذا هي الحياة يا صديقي.. في معاركها الكبيرة... يجب أن تجازف بكل شيء...النتيجة لا تحتمل سوى احتمالين إما نصرًا وغنيمة وإما هزيمة مع خسارة كل ما جازفت به...

وستتعلم مع مرور الزمن أنها كانت أسوأ اختياراتك حينما اخترت لحياتك لونًا رماديًا لتعيش فيه... وحين كنت في منطقة الصفر حتى لا تكون موجبًا أو سالبًا... فلا شك أنك كنت تضيع وقتًا كان الأولى بك أن تستغله في دفع نفسك وإيصالها نحو

المنطقة الموجبة.. لأنك لن تبقى طويلًا محايدًا فسلبيات الحياة ستجذبك لدائرتها دون إرادتك... ما لم أنت تفعل لنفسك شيئا.. هكذا هي الحياة يا صديقي..

* كم وددت يا صاحبي أن نسافر في مسافات السماء الشاسعة.. هناك في الأعلى حيث أهدتنا الشمس من شعاعها نجمة.. وصنعت لنا الطيور من أجنحتها المتكسرة أجنحة من حب.. نقطف الفرح من حقول الغيمات... ومن خيوط الشمس نغزل ثوبًا من دفء... وفي المساء نساهر القمر..

** إذا أردت أن تبتعد يا صديقي.. لتتعافى من ماضيك.. عليك أن ترحل وتترك وراءك كل شيء... ذكرياتك السيئة.. أشخاصك المريضين... عقلك المخرب من الألم... روحك المحطمة... إياك أن تصطحب ما كان مصدرًا لكآبتك في يوم من الأيام؛ وإلا لن يجديك ابتعادك نفعًا... ستبقى تطاردك تعاستك وتحاصرك في كل مكان.... ستكرر آلامك نفسها لكن في مكان آخر.. إذا أردت أن تبدأ من جديد.. وتجبر كسور قلبك وترمم جروح روحك... ابحث جيدًا لقلبك على أرض صلبة في ثنايا

الوجدان حتى يقف عليها ثابتًا دون أن يهتز... لتستجمع ما بقي من قواك وتداوي جروحك على مهلٍ، وتعود مجددًا لواقعك القاسي ولكنك هذه المرة أشد منه وأصلب.

* أصعب انواع الغربة يا صديقي هي غربتك عن نفسك..

ان تستوحش من أفكارك... أن تضيق بك روحك... أن تقبع في ركن معتم من عقلك... أن تهرب شاردًا من خاطر مؤلم أو من فكرة مقلقة تمر بداخلك حتى تقودك إلى قلق أعظم ثم تتلقفك فكرة أقسى أو ذكرى أكثر ألمًا... أن يتفق ماضيك وذكرياتك مع واقعك حاضرك على ملاحقتك ومطاردتك؛ بل ومحاصرتك في زاوية ضيقة من الروح والوجدان... ستزورك نفس الهواجس في كل مساء.. ولن تعتاد عليها أبدا.. تبقى ضيفًا كريه غير مرغوب فيه.. لن تستأذن منك.. ستداهمك... ستغتالك وتصيبك في مقتل راحتك و طمأنينتك..

** قل لي بربك يا صديقي ما عساي أن أفعل بانتصاري في معركة أضعت فيها أجمل سنيني وخسرت فيها رونق الحياة ؟!! وما أنا صانع بنصرٍ وقد تحطمت عندي الثقة وانقلبت كثيرًا من

ثوابتي رأسًا على عقب؟!!... وهل ستعيد لي نشوة النصر ما انكسر بداخلي من فرح وبراءة... وهل ستعود الحياة من جديد إلى أحلامي وأمنياتي التي جفت و ذبلت.؟!!! وما عساه سيفعل براية نصرٍ من خارت قواه فما استطاع حملها؟! إنه ذلك الانتصار الباهت يا صديقي الذي يحدث لنا دائمًا متأخرًا مع فرق توقيت في الشعور...

*علي أن أعترف أحياناً يا صديقي أن الحياة بدأت تعجبني كما هي بتناقضاتها... بتموجاتها وتنوعاتها.. اختلافاتها وفروقها.. صار يعجبني وجود الكبير والصغير فيها.. البسيط والمعقد، الجيل الصاعد والجيل السابق.. الأبيض والأسود.. بدأت لا أحب أن أراها نمطًا واحدًا.. فنحن لم نخلق لنكون فقط مع من يشبهنا.. فالمختلفون عنا أحيانًا هم من يكملوننا ووجودنا معهم قد يدفعنا للخروج من مألوفنا وإطلاق دهشتنا وحماسنا تجاه الحياة..

وحتى حياتنا لو سارت على وتيرة واحدة لاستحالت مشاعرنا إلى مجرد قوالب ثابتة نمسي ونصبح كل يوم ونحن نحمل نفس أشكالها... ولولا يوم سيء مر بنا لما سعدنا بيوم آخر قد يكون عاديًا لكنه حمل لنا معالم فرح بسيطة.. ولولا الصيف الحار لما

اشتهينا الشتاء... ولولا سواد الليل لما انتظرنا بلهفة بزوغ الفجر.. وإذا لم ندخل في تجربة إبحار شاقة لن نستطيع أن نصل ونحن ممتنين ومبتهجين إلى شاطئ الأمان... هي التناقضات التي تصنع معادلة إحساس ناجحة في داخلنا..

هكذا بدأت أكتشف أن الحياة كأحجية يا صديقي.. كل تساؤل فيها يؤدي لآخر.. مما يدفعنا لنبحث عن الأجوبة التي تقودنا لنصل إلى أماكن مجهولة في حقيقة الحياة... وحتى اختلافاتها تكمل أشياء داخلنا وتسلط الضوء على مناطق معتمة في عالم إدراكنا..

** ليت حياتنا يا صديقي تشبه إحدى صورنا التذكارية التي أخذت لنا في أحد لحظات سعادةٍ مسروقةٍ من العمر جمعتنا بمن نحب.. يتوقف فيها الزمن... فنستطيع أن نحتفظ فيها بتفاصيلنا الأنيقة التي اجتهدنا أن نظهرها وقت التصوير.. وبنفس ابتسامتنا التي عانقت محيانا حينها... وحتى الأشخاص نحتفظ بهم حولنا كما هم في داخل الصورة... فنخلد أحاسيسنا بالبهجة.. ونبقى أسيرين لتلك اللحظةِ الجميلة التي جمعتنا وقتها فلا يستطيع أن يمحي وقعها في قلوبنا كدرٌ ولا ضجر.. وطيف الفرح ذلك الذي

عبر أرواحنا لا يغادرها... وتلك الأحلام الوردية التي سكنت مخيلتنا لا تفارقها ليحل مكانها ألوان من الواقع داكنة فتظل تزهر بداخلنا أملاً.

** حين كنا صغارًا يا صاحبي كنا ننظر للكبار الذين يعانون من ضعف في الذاكرة أو تعب من كثرة الوقوف والمشي بنظرة تعاطف.. وكنا ننظر لمن تقدم بهم السن أنهم الأكثر حكمة والأكثر زهدًا في الحياة، كون أن الناس كلما كبرت اقتربت من الموت... وحتى تجربتنا البسيطة في الحياة التي كنا نمتلكها حينها كانت تجعلنا ننظر للأمور إما باستهجان كبير أو باستحسان مبالغ فيه وأحيانا بشفقة زائدة.. طالما نظرنا لأولئك الذين يكبروننا سنا أو تجربة بالحياة كما لو كانوا موجودين أمامنا لكن على الضفة الأخرى من النهر.. فهم بالنسبة لنا كانوا (الآخرين).. وحينا يتقدم بنا خطوات العمر والخبرة والتجارب نجد أنفسنا ودون أن نشعر أننا أصبحنا ذلك (الآخر).. وعلى أساسه فإنه يتوجب علينا أن نرى الأمور ونحكم عليها وعلى البشر من مكاننا بالضفة الأخرى.. نعم إنه الآن كما لو كان تغير في لعب الأدوار تبنٍّ لمواقف مختلفة... ولا أقول إنه سهل على النفس البشرية ذلك التغير.. فعلى غفلة من

الزمن يجد أحدنا نفسه ذلك المرشد الحكيم الذي عليه أن يقدم النصيحة للآخرين وبدلًا من أن يسمعها أو يطلبها.. أو يكتشف نفسه أنه يصبح ذلك الشخص الذي كنا ننظر إليه على أنه كئيب لأنه لا يحب الضجيج ولا يكترث بكثير من التفاهات والمظاهر... نكتشف أننا أيضًا نشبه شخصًا تعاطفنا معه في السابق بسبب ظروف معينة... وحتى ما كنا نستنكره في الآخرين نصبح الآن نبرره فيهم وحتى في أنفسنا.. وما كنا نحسد أنفسنا أحيانًا عليه يتحول في نظرنا إلى أمر عادي جدًا وربما أقل من عادي.. فأكثر ما يميز هذا الآخر أنه تجاوز مرحلة اختبار الأشياء والأشخاص وأصبحت الأمور عنده أكثر وضوحًا... وللأسف ليست كل الحقائق محببة، فبعضها كان من الأفضل أن يبقى مبهمًا.. وأيضًا تجاوز هذا الآخر مرحلة الدهشة.. ومتعة الاستكشاف والتعرف، بحكم كثرة التجارب التي مر بها فأغلب الأمور عنده ذات إيقاع ووتيرة واحدة.. هكذا يسير بنا مركب العمر لنصل إلى الضفة الأخرى حيث نصبح نحن أولئك (الآخرون)...

** يبدو أنه يا صديقي من الصعب جدًا علينا العثور على الأشخاص الذين لا يتغيرون أبدا... كلهم رائعون في البداية

ومختلفون تماما في النهاية... هي خيبات متلاحقة في كثير ممن عرفنا... لكن ربما أنه علينا زيارة المتاحف لتحقيق تلك الأمنية.... فالتماثيل الأثرية وحدها قد تفي بالغرض....

ليتنا نمتلك حق الاحتفاظ بانطباعاتنا بمن نلتقي وانبهارنا أحيانًا بهم وأحيانا تعاطفنا معهم... على شكل تماثيل لا يغيرها الزمن.. أو تحنيط من نعرف بمشاعرهم ومواقفهم ليبقوا كما هم لا يتغيرون أو لا يرحلون... ليت الأشياء الجميلة لا تتغير.. والمشاعر الصادقة لا تنكسر.. ليتنا نستطيع إبقائها كورود مجففة بين صفحات كتاب... لكن للأسف نحن لا نمتلك الحق الاحتفاظ بماضينا كما هو بالأشخاص والشعور حتى يكون جزءًا من الحاضر أيضًا إلا فقط على شكل صور تذكارية نعلقها على حائط متحف العمر... ننظر إليها عند كل خيبة جديدة... لنتساءل من جديد هل نحن سذج ام هم مزيفون؟!!!

* ألا ترى يا صاحبي أننا قد بلغنا من العمر حيث أن فصول الحياة مرت علينا جميعًا بعواصفها وصفائها وكدرها.. فلم يعد هناك الكثير ما يفاجئنا؟!!..

نعم، يبدو أن ارتطامنا بالواقع كان كفيلًا أن يضربنا الصفعة التي تجعلنا نستفيق من الحلم... إنما نحن الآن قد أصبحنا فقط أكثر استعدادًا للمواجهة...

نعم يا صديقي؛ نحن لسنا أبدا نفس الأشخاص.. بل بدلتنا كثيرا الظروف.. وشكلتنا الحياة في قوالب تتخذ أشكال حيثياتها.. في كل حقبة نعيشها يتحتم علينا أن نتقمص دورًا جديدًا مغايرًا للآخر، يحمل طابعًا مختلفًا ومشاعر وأهواء جديدة... هكذا حتى أصبحنا غرباء عن أنفسنا....

* أريد منك دائما يا صديقي أن تستمتع دائما بكونك عزفا منفردًا... تترنم على أوتار من ذهب بلحنٍ عتيق... أن تكون المميز دومًا بين ممن اختلطت أصوات ألحانهم مع الضجيج.. أن لا تشبه شيئًا أو أحدًا.. بل تجعل كل الأشياء تحاول أن تأخذ منك وبالكاد تحاذيك... لا تهتم لقلة المستمعين إليك يا صاحبي... فيكفيك أولئك الذين أبصروا بذوقهم الرفيع جانبك الجميل... استمتع يا عزيزي بكونك أنت..

** يلتم الزائرون حول أحزانك وجروحك لبعضٍ من الوقت.. يوجهون بعضًا من نصائح ويقترحون بعضًا من الحلول.... يقدمون بعضا من كلمات المواساة ومحاولات لشد أزرك..

بعدها ينفض الزائرون من حولك...

هنا يا صديقي وفي هذه اللحظة.. عندما تبدأ وحدتك.. ستشتد وطأة الألم عليك.. فهاكَ الإبرة والخيط... وهاكَ أداة للكي... ولا تنسَ القوة والصبر..

عليك الآن أن تخيط جراحك بنفسك...

وأن تكوي مواضع أوجاعك إذا لزم الأمر.. وبكل ما بقي منك تلُمّ بقاياك وبحطام وجدانك تستجمع حطام روحك..

عليك أن تنتزع رصاصة الحزن من أحشاء قلبك بنفسك فلا احد يعلم مكانها غيرك.. وأن توقف نزيف آهاتك.

هنا دورك فقط هو الأبرز في قصة حياتك، فأنت فيها البطل الذي عليه إما الموت بشجاعة أو النجاة بشرف.. دورك أصبح دور البطولة هنا يا صديقي ..

فحين ينفض الزائرون... لا يعود لوجعك إلاّكَ... **

** لم تكن الحياة يا صديقي كما نراها.. ثمة أشياء تحمل وجهين...... بل إن هناك وجهين في الحياة.. لكل شيء...

على قارب الحياة قُدّر لي أن تسير بي أمواج الظروف والأقدار، لأجد عقلي يرى ما لم يره من قبل ويدرك أشياء لم يدركها، تظهر حياة أخرى غير التي عرفتها، تحمل وجهًا آخر غير ما ألفته، معنى مختلف غير ما ظننته، شكلًا آخر، حقيقة أخرى.... وكأن ما انصرم من سنوات عمري لم يكن إلا مزيجًا من أكاذيب وأوهام وخرافات عن ما يسمى الحياة... نعم... إنه يا أخي زوال الزيف وانقشاع الضباب.. الذي كلفني رحلة عمر طويلة.. يحفها الأضاليل والخدع....**

حقيبة الذاكرة

في حقيبة ذاكرتي أحتفظ بوشاح جميل يحمل رائحة أمي... وألعاب ودمى مغلفة بالفرح تشبه هدايا أبي... وكتاب قديم يحمل بين طياته ضحكاتٍ ولحظاتٍ لمشاعر مختلطة من سعادة وألم وحب وكره ونصر وخيبة.. وهناك ملابس عيد لا زالت تحمل بين ثناياها نشوة فرح الطفولة.. وهناك منديل ما زال يحمل أثرا لدموع منسكبات... وحكايات ومغامرات وضعت في قالب من المتعة ودهشة الاكتشاف الطفولي البريء..

في حقيبة ذاكرتي صورٌ قديمة لناسٍ مضت.. ولن يعودوا.. وإن عاد بعضهم فلن يكونوا هم نفسهم الذين بالصورة بل أشخاصًا دارت عليهم عجلة الزمن حتى اختلفت ملامح أرواحهم وأشكالهم.. لكن مهما تغيروا لا زلت أحتفظ في تلك الحقيبة بجزء كبير من ذلك الماضي الذي جمعني بهم وما ارتبط به من ذكريات ومشاعر... نعم إنها حقيبة الذاكرة التي أحتفظ بها في داخل روحي وعقلي لأهرع إليها كلما انتابني الحنين، أو أردتُ هروبًا من واقع عصيب.

أبحث عنك

منذ أن رحلت عني وأنا أبحث عنك.. بحثت عنك في كل يوم.. وأنا أعلم أني بالكاد سأجدك.. بحثت عنك بلا كلل وبلا ملل.. في تفاصيل يومي... بين طيات ذكرياتي.. في رائحة عطوري.. ألوان ملابسي.. أحاديث صديقاتي.. زوايا الأماكن.. منعطفات الطرق.. في الأغاني والروايات وبين الكلمات.. لا زلتُ أجمع ملامحك كقطع أحجية متناثرة.. عقلي أراه دائما يركض خلفك بكل اتجاه كحصان جامح... يقتفي أثرك في كل واد.. وقلبي تلك الفراشة المحلقة التي تتحسس بصيصًا من ضوء في الفضاء المعتم.. انتظرتك كلما تعاقبت علي الفصول.. وبدأت ألملم أجزاء منك في داخلي أحتفظ بها.. حتى جاء فصل الشتاء .. وفي يوم من أيامه الماطرة.. صحوت صباحًا ورفعت الستائر... غمرني إحساس غريب بالسعادة وابتهجت لدرجة أني ابتسمت لنفسي... كان كل شيء حولي يشبهك بصورة استثنائية في ذلك اليوم.. منظر المطر انهمر بك على ذاكرتي وذلك الجو الغائم أعادت صورتك الضائعة إلى قلبي مجددًا فاستقبلها بكل حفاوة تماما كحفاوة الغيمات المليئة

بالقطرات.. تحمست كثيرا فهرعت لألبس معطفي لعلني أجد المزيد منك في الخارج.. في الشوارع والطرقات... مشيت بسيارتي وشغلت الراديو... كانت أغاني فيروز الصباحية تدخل على روحي إيقاعاتك.. ورائحة الشتاء الندية ترجعك وبقوة إلى عالمي.. وحتى ذلك البرد أعاد لي إحساسي المفقود بدفئك..

عدت إلى المنزل وإلى غرفتي.. وقررت أن أحتفل بك على طريقتي.. فصنعت فنجان قهوة وجلست بجانب المدفأة.. احتسيت القهوة على شرفك... في المساء راق لي أن أشعل بعض الشموع كأحد طقوس الاحتفال بك وأن أقرأ على ضوئها أحد الروايات التي تجذب طيف ذكراك إلى مخيلتي.. غلبني النعاس حينها ونمت... فجأة استيقظت وفتحت عيني لأجد انعكاسٍ ظلال الأشجار في غرفتي بسبب ضوء الشموع فلمحت لك ظلًا بينها وكأنك تتوارى خلفها... شعرت أنك دائما هنا حيث أنا.. ملاكي الحارس الذي يراني ولا أراه... لكنه موجود.. وعلي أن أستخدم عيونًا ليست كعيون البشر الحقيقية حتى أراك أو أحس بوجودك.. عيون الحنين والشوق واللهفة... عيون الفقد الموجع والفراق الذي بلا أمل... نعم أدركت إني أمتلك حواسا أخرى تضاف لحواسي الخمسة... حواسًا خاصة بالإحساس بك والبحث عنك واستشعارك واستحضارك...

تلك الحواس التي أوظفها في عالمي الآخر الذي أعيش فيه وهو خاص بي وبك فقط... من يومها وأنا أحرص أن أشعل شمعة قبل النوم.. حتى يأتيني ظلك ليزورني في كل ليلة...

الأدوار المتبادلة

قد تبادلت اليوم معك الأدوار يا بني... فكن لي أنت أماً وأباً وابناً... كن لي عائلةً وحياةً وعالماً.. كما كنت أنا يوماً كل عالمك... اجعلني يا ولدي أموت بسعادة وهناء كنوم الأطفال.. كما كنت أدفئ قلبك الصغير بحكاياتي وعناقي لتشعر بالأمان عند نومك.. أسعد روحي الهرمة التي أرهقتها همومك ومتاعب الدنيا ولو بأقل شيء.. فأنا الآن أشبهك طفلًا وأنت تفرح بلعبة العيد وتسعد بكراسة تلوين جديدة..

أزهر في خريفي ربيعاً وأملأ ما بين ثنايا قلبي المجعد بالأمل.. حتى إذا رأيت قطار الزمن يسافر بي للمحطة الأخيرة لن أتحسر على ما مضى لأني قد وجدت فيك عوضاً عن كل خساراتي.. فساعدني أن أحب ما بقي من عمري وأن أتقبل ضعفي حين أراه سببًا لاهتمامك بي.. سأحب جدائلي البيضاء إذا سرحتها لي بيديك.. وإن ضعف بصري فيمكنني أن أتخيل الأشياء الجميلة لأراها أمامي بسبب حبك المنهمر على بصيرتي.. وبسبب دلالك سأرى نفسي عجوزا جميلة.. وإن خانتني الذاكرة فحتمًا ستكون

مشاهد عطفك وحنانك آخر فصولها.. اجعل يا ابن قلبي الابتسامة آخر ملامح وجهي الأجعد عندما أغادر الحياة...

سطوة الحزن

ما زال الحزن ديكتاتورًا يهيمن بكل وطأة ألمه وسطوة وجعه على الأرواح... يوزع فتاتًا من فرحٍ على القلوب تقتات به لأيامٍ أو لساعات...حتى يباغتها بعواصف إعصار ليتركها جرداء من كل ابتهاج من جديد.... من سطوته صارت الضحكات مسترقة أو مفتعلة... وصار حتى الصمت شكل من أشكال البكاء.. ونحيب الروح موعده في المساء.. أعدَّ الحزن أقنعةً للشعور وأكفاناً للسعادة.. ومحرقة كبرى تلتهم الأمنيات والأحلام وتحولها إلى رماد...

في حضرة الغياب

في الغياب.. يحضر الأشخاص بذكرياتهم وبأرواحهم... لا بأجسادهم... ويحضر الوجع.. يلبس معطفه الأسود.. يحتسي قهوته السادة بعجرفة... يمكث طويلًا كضيف ثقيل الظل...

في الغياب.. تكثر الأحاديث المختصرة والعبارات المقتضبة الشاحبة التي تفتقد الحماسة والتشويق...

في الغياب.. يقبع الضجر حاملا شموع الظلام... في زوايا المكان... بينما يجلس الحنين الباكي متربعا على أريكته ليرسم توقيعه على صفحات كتاب الأيام...

الحطام

أنهيتُ بناء قاربي الاول، وأطلقت شراعه، واخذت له عدة صور احتفالا به، ولم يفتني أيضًا أن ألتقط صور (سيلفي) بجانبه، وأسميته مركب الأمل، فهو ما نصحوني ببنائه مجموعةُ مستشارين من علماء النفس والفلسفة؛ بعد ما نظروا طويلًا وتحيروا في تشخيص الأعراض لحالتي، عندما صرت أشكو باستمرار من نوبة (اللاشعور).

حين أتممت بناءه ؛تملكتني بعض السعادة التي أرغمت نفسي على الشعور بها في البداية.. نظرتُ إليه وتأملتُه بكل حواسي؛ فهو الذي بذلت في صنعه مجهودًا نفسيًا لم أبذله في شيء قط... وهكذا فإني أخذت جانبًا من جوانب القارب، واستعدَدْتُ لتجربة الإبحار الاولى في حياتي.. وبدأت بتشويق نفسي وإيقاظ مشاعر الإثارة والمغامرة بداخلها.. ونظرت إلى الأمواج كما لو أن البحر قد أرسلها لتستقبلني بحفاوة تلاطمها وتأخذني إلى عرض البحر بقوة دفعها... وما زلت كذلك بتأملاتي وتوقعاتي؛ حتى تفاجأت برياح شديدة تغتال قاربي وتحطم سارية شراعه، وتقوده وتقودني

إلى صخرة كبيرة تحوله إلى حطام...استطعت العودة إلى الشاطئ الذي لم أبعد عنه كثيرًا بسلام... وجرفت الأمواج بعض ألواح خشبية من أثر حطام قاربي، فأسرعت في حمل هذه الألواح.

انتابت الدهشة والفضول بعض السياح والزائرين المتواجدين هناك؛ فقاموا بالتقاط بعض الصور، وبعضهم أظهر التعاطف أيضًا... بقيت مكاني أجلس عند ركام مركبي المتحطم... وبعد أن شعرت أنه محض غباء أن ألوم الرياح القوية أو ألوم الموج العنيف؛ توقفت عن ذلك ،فوجهت اللوم لنفسي لأني لم أتابع الأرصاد الجوية واستفسر عن سرعة الريح، أو ربما كان يجب أن أبني قاربي بمتانة وإتقان أكثر حتى يكون أكثر صمودا... بقيت جالسةً طويلًا... ودون أن أشعر وجدت نفسي أبني بيوتًا وقصورًا من رمال الشاطئ التي هدمها الموج أيضًا.. وبعدها تأملت غروب الشمس بكثير من اللاشعور.. ولم أنسَ حين غادرت أن أحتفظ ببعض الألواح الخشبية كتذكار لقاربي المتحطم..

الرسمة المبتورة

طلب منهم المعلم أن يرسموا شيئًا يعبر عن حياة كل منهم.... كان هو طالبًا ذي سنوات عشرة... يعيش سنوات اليتم في بيت جدته المسنة... لم يمت والداه لكنهما انفصلا ثم تزوج كلا منهما وحين كان هو حلقة الوصل المزعجة فضلا أن يبقياه بعيدًا لكن في مكان آمن... فاختارا أن يعيش مع جدته.... كان هو محبًّا للحياة حتى أنه لقب بـ (الولد الضاحك)... وبالرغم من شعوره بالوحدة واليتم.... شيءٌ ما بداخله يرفض أن يرى الجانب المظلم من هذا العالم... تعود دائمًا ألا يحدث نفسه إلا بالأشياء الجميلة مهما شح وجودها... وإن لزم يلجأ إلى أرشيف الذكريات الحلوة التي في عقله... ببساطة لا يريد أن يعلم كثيرًا عن مشاعر الوحدة والتخلي والألم، ولا يريد أن يعلم أيضًا عن النكبات والحروب ولا الأمراض والكوارث والأزمات؛ وهو يعلم أن العالم من حوله يضج بالكثير منها.. هكذا قرر مع نفسه بل وأخذ عهدًا عليها أيضًا.... فكانت رسمته الأكثر غرابة؛ شمس فاقعة الصفرة كعادة الاطفال في زاوية الورقة ولكنها كبيرة جدًا تكاد تحتل نصف الورقة، وكثيرٌ

من العشب والشجر الشديد الخضرة والزهور الملونة، وولد يحمل وجهًا مبتسمًا يمسك بيديه الحبلة وكأنه يلعب في حديقة، وفي زاوية أخرى للورقة رسم بيتًا صغيرًا جدًا لَوّنُهُ بالأسود وكأنه معتم... ربما كان يقصد بيته القديم الذي كانا يعيش فيه مع والديه، وكان يقف أمامه شخصان دقيقا الصغر كأنهما يلوحان له من بعيد، وكأنه يقصد بهما والديه..

هكذا هو كان يرى الحياة.... أحب هو رسمته كثيرا، بالرغم أنها بدت لأستاذه عادية جدًّا أو أقل فلم يفلسفها الأستاذ كثيرًا... واحتفظ هو بها لنفسه وبعدها بسنوات حين كبر قرر أن يقص ذلك الجزء المزعج الصغير الذي في زاوية الورقة، ويبقي على الشمس والزهور والوجه المبتسم....

البحث عن نرجس

اجتمعت عائلة السعيد لبحث وصية الجد راضي.. فقد مضى على وفاته شهران.. فكان لابد للوصية أن تفتح وتقرأ على مسامع الجميع.. بسبب رحيل ابن راضي الوحيد فإن العائلة مكونة من الحفيد الأكبر شريف، وزوجته وأبنائه الأربعة، والأوسط علاء، وزوجته وابنتيه الاثنتين، والحفيدة الصغرى سوزان التي لم تزل عزباء.. كانت العائلة تعلق آمالًا كبيرة على هذه الوصية وتعتبرها طوق نجاة لها للخروج من أزماتها المالية التي مر بها أفرادها في الآونة الأخيرة.. ولا سيما أن الجد قد ترك ثروةً لا بأس بها على حد توقعاتهم..

بحضور محامي العائلة السيد عماد؛ الذي بدأ الجميع بالإنصات له؛ وعبرت تساؤلات كثيرة في أذهانهم حينها، كانت مشتركة ومتشابهة بينهم... هل سينصفنا الجد هذه المرة؟ هل سيشفق علينا كما لم يفعل أثناء حياته؟ فكانت الإجابة الحاسمة من فم السيد عماد الذي بدأ بإخبارهم عن تفاصيل بدأت بالأول بمجملها مريحة لحد ما بالنسبة إليهم.. لكنها لاحقًا حملت

مفاجأة مربكة ومقلقة؛ حين تم الإفصاح عن شرط تنفيذ الوصية وهو البحث عن نرجس وإحضارها لتأخذ حقها من الميراث كما الجميع؛ على اعتبار أن نصيبها ما زال محفوظاً منذ زمن وفاة والدها.... من هي نرجس إذن؟! هذا ما أخبرهم به المحامي بأنها أخت راضي التي تركت العائلة منذ بضع وثلاثين عامًا بسبب خلافها مع أخيها راضي واختيارها لزواجٍ رفضه رفضًا قطعيًّا.. وبسبب اختيارها لأسلوب حياة اعتبره راضي أيضًا متحررًا غير مقبول... وهكذا فإن الجد لم يشأ أن يعرف أحد عنها منذ تلك الفترة واعتبرها وكأنها غير موجودة.. على حد قول المحامي وشرحه.. فالنتيجة أن نرجس على ما يبدو مسافرة منذ فترة إلى مكان مجهول ولم يعد لها أثر بالنسبة إليهم...

إذن فعلى ما يبدو أن مهمة البحث عن نرجس كمهمة البحث عن إبرة في كومة قش.. لكن لابد من التشاور وإجراء الاتصالات اللازمة. العائلة التي لم تكن تجتمع إلا في مناسبات معينة وبطريقة رسمية.. صارت تجتمع دائما وصار بينهم ولأول مرة هدفًا مشتركًا.. وبسبب هذا الهدف المشترك فإن العائلة اضطرت لما يسمى تقريب وجهات النظر، وأيضا للتحايل على النفس وإجبارها

على استلطاف الأقارب لبعضهم.. فهم عادة لم يكونوا محببين كثيرًا لبعض.. أو مستساغين..

وكنتيجة لاجتماعات العائلة وتدارسها الموضوع؛ توصلوا أنه لابد السفر لعدة أماكن من أجل السؤال عنها.. ووضعت قائمة بأسماء البلدان المقترحة.. وتم توزيع البلدان على أولاد الأحفاد وبناتهم.. بينما الأخوة شريف وعلاء وسوزان تفرغوا للبحث داخل حدود البلد..

وفي صدد موضوع خطة السفر؛ تم اكتشاف أن هناك عائقًا مهمًا في سبيل تنفيذها؛ قلة الإمكانيات المادية... وبعد المشاورات والمداولات؛ فإنه لابد من إيجاد حلول سريعة ومجدية أيضًا... فلم يكن الأخوة يملكون ما يمكنهم رهنه للبنك أو بيعه.. فلم يكونوا سوى أصحاب مهن توفر لهم قوت شهر بشهره، وتؤمّن لهم مستلزماتهم الأساسية.. وحتى ما يملكونه في أرصدتهم البنكية لم يكن يكفي لإتمام مهمة السفر، ولكن أبن شريف الأكبر فادي الذي صار كثير التفكير والتخطيط بسبب موضوع نرجس؛ توصل إلى اقتراح، أن يتم عمل مشروع يشترك فيه الأخوة الثلاثة بإمكانياتهم، ويجني لهم ريعًا يوفر لهم ما يكفي مصاريف السفر.. كانت الفكرة لا تزال مبهمة وغير مقبولة بالنسبة للأغلب، لكن تم دعمها

وبقوة بالإضافة إلى فادي من قبل رشا ابنة علاء الكبرى أيضًا.. والتي تعلمت مهارة دعم الأفكار وحسن الترويج لها بسبب العمة نرجس أيضًا... وأُسْتِقْطِبَ مروان أحد أبناء شريف بشدة لهذه الفكرة وبدأ ولأول مرة بعمل جدولة لمشاريع واختيار الأفضل حسب الأجدى مادياً طبعاً...وفي المحصلة؛ نجح الأخوة وأبناؤهم في عمل مشروع ملابس، الذي بدأ بسيطاً لكنه بدأ يكبر شيئاً فشيئاً مع مرور عدة سنوات، ليصبح عبارة عن شركة ذات اسمٍ تجاري، تولى كل واحد من العائلة دوره في ذلك المشروع ووظف طاقاته وقدراته فيها، وحتى زوجات شريف وعلاء اللواتي لم يكن يفضلن حياة العمل؛ استلمن جزءًا لابأس به من مهمة التسويق..

مع مرور الوقت صار مشروعهم الحالي هو شغلهم الشاغل وصاروا يبحثون عن طرق لتنميته وتطويره وزيادة مردوده عليهم.. يبدو أنه لم تعد العمة نرجس ضالتهم المنشودة... ربما قد وجدوا ما كان ضائعًا حقًا ويستحق منهم عناء البحث.

أرواح مبعثرة

* انصرف بسيارته المهترئة هاربًا من نفسه يمضي بلا هدف.. يسلك الطرق الوعرة المؤدية إلى خارج قريته...

بعد أن قطع نصف المسافة تعطلت مركبته... فوقف بجانبها لبعض الوقت.. ثم مضى عائدًا من حيث أتى يسلك نفس الطريق الصعبة لكنه هذه المرة راجلًا... جلس تحت شجرة ليرتاح فأطال الجلوس وصار يتأمل آثار جروحٍ وندباتٍ قديمة تركتها السنين في قلبه.... نَسِيَ أمر سيارته ولكنه تذكر أنه عليه العودة إلى منزله قبل المساء فالطريق ستصبح معتمة ...

كم هي كثيرة تلك الخيبات....

* ذلك الرجل الذي على متن قاربٍ صغير في عرض بحرٍ كبير في ليلٍ حالك السواد.. كيف له أن يهتدي لوجهته.. كيف له أن يصمد في وجه أمواج البحر الغاضبة... كيف له أن يقاوم ذلك الخوف من سطوة لُجٌته؟!!...

ربما قد حمل في قلبه قنديلًا مضيئًا وجعل إيمانه هو البوصلة.. وصنع من سلام روحه منارةً له وأمان.

* سقطت مني أوراقي ورقة تلو أخرى.. ما عاد يجدي كثرة إعادة ترتيبها فيبدو أن قوة جاذبيتها للأرض مرتفعة... فنثرت ما بقي منها وجلست قليلا أتأمل بعثرتها بسخرية متصنعة.. ثم مضيت...

* نحن لا نموت دفعة واحدة.. بل على مراحل.. آخرها هو موت الجسد.. تموت فينا أولًا الرغبة بالأشياء.. ثم تذوي بداخلنا شموع اللهفة لكل أمر.. فكل الأمور تصبح اعتيادية في مقياس أحاسيسنا أو أقل.. أو إن شئتم القول هي متشابهة ليس هناك ما يميزها.. ويبدأ زهر أرواحنا بالذبول.. وبريق عينينا يؤول إلى الانطفاء... وتتقلص مفردات أحاديثنا... ولا يبقى يغرينا أو يشدنا شيئا من صور الحياة الملونة البراقة، ونفقد ذلك الشوق والتطلع لقدوم الغد... وحتى شعور الحنين والدهشة.. فكل الأيام وكل اللحظات في أنظارنا هي على حدٍّ سواء..... نعم، إن مفارقة

الحياة لا تقتصر على الأموات فقط.. بل هي رحلة شاقة تبدأ من الأحياء....

* عائد من زمن صعب

كان بالكاد يتوازن.. يتخبط في مشيته.. يأكل الضعف أجزاءه.. يستأثر ببقايا نفسه.. هو مضطرب لحد الضياع.. قدرته على الرؤية تنحصر في الألوان الداكنة فقط.. بل أكثر ما يستطيع أن يبصره هو الظلام...

* لأننا اكتفينا.. صارت تجرحنا أقل الكلمات.. وتكسرنا أصغر المواقف.. صرنا نختصر العلاقات حتى نتجنب ما يؤذينا.. ونترك مسافات أمان حتى نتجنب كثرة الاصطدام...

هوينا الاعتزال.. وأصبحنا نرمم جروحنا بأنفسنا وتعلمنا الوقوف على ساقٍ واحدة...

استطعنا أن نضيء عتمة قلوبنا وصنعنا من ضوء القمر قنديلًا... اعتدنا أن ننشل مركبنا من تحت الماء كلما ابتلعه الموج.. لنركبه مجددا بعد كل حادثة غرق... نعم فقد تعايشنا مع الخذلان.. وتصالحنا مع الوجع...

** ها نحن نسير على حافة الأيام.. نمضي بها وتمضي بنا... نعبر السيء منها ونفرح بأنها لم تكن أسوأ... حفظنا جيدا معالم طريقها الوعرة وتضاريسها الشاقة... نتجاوز مستنقعاتها.. ونعلو فوق هضابها... لم يعد هناك ما يفاجئنا أو ما لا نتوقعه بعد.. ولم يعد يضنينا طول الرحلة ولا بعد المسافة.. لذلك فنحن قد حملنا لقب محترفي طرق وعرة وبجدارة ...

** للأرواح المنهكة شكل يشبه تلك الصحراء القاحلة التي أخلف المطر موعد قدومه إليها حتى أجدبت وأقفرت أرضها من كل فرح، وجفت ينابيع الأمل بها، ويبست أشجار البهجة عليها فتساقطت أوراقها وتكسرت أغصانها.. أو يشبه صورة طفلة انتظرت طويلًا مجيء العيد لتكتسي بحلة السرور فلما لم يأتِ صنعت من بؤسها أثوابًا رثة بالية ترتديها....

إنطفاء

يحبسون نوره في السرداب ثم يسألون لم أنت منطفئ...
يهيلون عليه التراب ويتساءلون لم أنت قذر...
يبترون ساقيه ثم يقولون لم أنت عاجز...

يحجبون عنه السماء والماء ويسألونه لم لا تزهر..

ليست بغرابة كبيرة في أفعالهم.. بل إن الغرابة في تساؤلاتهم هي الأكبر...

أحزان أنيقة

جروحنا وآلامنا أنيقة جدًّا... حتى أنها تزورنا أحيانًا على شكل أعياد...

وأحيانًا تحمل وجوه ضاحكة. وترتدي ملابس غاية في الأناقة.. تضع عطورًا وأحيانًا ترتدي نظارات شمسية... نحن نتقن أن نجمل أحزاننا أكثر من أفراحنا..

نختار لها مناسبات فخمة... وطقوس أنيقة... وكأننا نحاول ان نخفي وجوهها الذميمة بكثير من التأنق والبذخ والاحتفال أيضا...

السيدة زينب

لا زلتُ أتذكر اول أيام عملي؛ حين استلمتُ وظيفتي الجديدة. ولا زلتُ أتذكر فرحة أمي التي لم تكن تتسعها الدنيا ولا سيما أني وحيدها، وصدى كلماتها لا زال يتردد في أعماق روحي وهي تقول لي أثناء تبخيرها لي: (يا فرحتك يا عيشة بابنك.. كبر ابنك يا عيشة وتوظف وربنا ما ضيعلك تعب ولا صبر. رقيتك واسترقيتك يا أحمد يا ابن عيشة من كل عين شافتك وما صلّت عالنبي).

وظلت أمي توصيني طيلة أول أيام دوامي أن أمر على مقام السيدة زينب التي هي في طريقي لمكان وظيفتي.. لكي أتبارك منها وكي تحصل البركة في قرشي وفي حياتي.. وفي الحقيقة لم أكن أعطي الموضوع أهميّةً؛ إنما كنت أكتفي بقول حاضر لها فلم يكن عندي قناعة داخلية بهذه الأمور.. وتوالت أيام وظيفتي تترًا... كنت أشعر أن وظيفتي حبل يخنقني، وأنها ذلك الكائن الطماع الجشع الذي أعطيه أكثر مما يعطيني، ويطالبني أكثر من المقابل الذي يقدمه لي، وهو استغلاليٌّ أيضًا فالوظيفة عندنا تستغل حاجة موظفيها لها، ودوافعهم النفسية والمادية ودوافع أهاليهم ليقبلوا بها،

بالرغم من عدم قناعتهم بها وعدم موائمتها لرغباتهم وقدراتهم وطموحاتهم أيضًا.. وهكذا استمرت الشهور تجر بعضها بثقل شديد وأنا أشعر أني أسيرٌ لروتينِ وظيفتي، وأسيرٌ لدعوات أمي وحماسها لعملي، واستمرارها بتوصيتي أن أمر على السيدة زينب؛ ولكن هذا لم يزد حماسي أنا ولم يغير موقفي المبغض لعملي.. حتى تعين عندنا الموظف سعيد.. كان سعيد يبغض الروتين، كثير التذمر مثلي، غير مقتنع بوظيفته مثلي أيضًا. وكان يتمتع بشدة إقناع وبحضور مميز.. ولاحقًا علمت أنه ذو درجة من الثقافة التي لا يستهان بها.. ولا أدري كيف أنا الناصح الفهمان وقعت ضحيته.. فأخذني سعيد إلى أماكن أكسر بها جمود حياتي وأشعر ولو لساعات بحريتي من قيود كل شيء حولي يقيدني، الروتين، والضغوط المادية، والصراع المرير من أجل تكوين نفسي ومستقبلي، وقيود دعوات أمي وحرصها وخوفها، وآمالها المعلقة بي.. سعيد صاحب المزاج العالي كان يصحبني مساءً إلى أحد بيوت أصدقائه.. حيث يحلو السهر والطرب والشيشة، وبعض من الحشيشة ولعب الكوتشينة، وبعض من المقامرة. والتي كلها بجملتها كانت تندرج تحت مسمى الكيف بالنسبة لسعيد وأصحابه، أما بالنسبة لي كانت اسمها الحرية. الحرية التي كانت فيها بالنسبة

لي الغاية تبرر الوسيلة؛ ومهما كانت الوسيلة. فذلك الحبل قد شد وثاقه كثيرًا حول عنقي؛ فلم أعد حتى أميز بين ما يتماشى أو يتنافى مع مبادئي في سبيل إرخائه. وهكذا سعيد أطلق موهبتي المكبوتة في إنفاق الفلوس منذ أن كنت صغيرًا حيث كانت أمي تتولى أموري المادية وحتى الأشهر الأولى في تعييني.. وانتهى بي الأمر أنه لم يكن يتبق إلا ملاليم من راتبي آخر الشهر، وكان ذلك من ضمن الوسائل التي بررت فيها غايتي.. ولم يتركني سعيد دون إيجاد حل لهذه المشكلة أيضا؛ فبدأ بإقناعي أن الراتب قليل على متطلباتنا كشباب تحب البسط ولها متطلبات كثيرة.. وهكذا حتى بدأنا نأخذ من المراجعين عمولات مقابل بعض التسهيلات لمعاملاتهم. استنكرت الأمر في البداية كما عودني المرحوم والدي على استنكاره، وكما كنا نسمع من أمي بأنه رشوة وأنه مال حرام؛ لكني بدأت أجده مستساغًا في مقابل السعادة التي أحصل عليها وأنا أجد ما يكفيني ويسد احتياجات حريتي، ويلبي رغباتي الشبابية... وما زلت في بداية طريقي فلاشك أني لن أستمر في ذلك كثيرا وسيأتي يوم وأقلع عن ذلك ؛لكنها مجرد احتياجات مرحلة نفسية مهمة في حياتي.

وفي يوم استيقظت صباحًا على صوت المنبه وانتظرت أن تأتي والدتي لكي تعود لتوقظني؛ فمنذ أن سلكت مساري الجديد وأمي تتعب جدًّا في إيقاظي وتبدأ تلعن السهر والشلة السوء كلما رأتني أغطُّ في نومي صباحًا.. انتظرتها ولم تأتِ، فاضطررت أن أستيقظ بنفسي؛ لأتفاجأ بها مازالت ترقد على فراشها على غير عادتها.

سألتها ما بها، أخبرتني بأنها مريضة، أمي لم تمرض منذ مدة. هي نوبة السكري تأتيها كل فترة. لمَ اختارت أن تمرض الآن، وأنا ما زلت أتأرجح بين اختياراتي وأخوض تجارب مرحلتي، وأختبر الأشياء، وأتجرأ على الممنوعات؟ الآن ستأخذني ظروفي إلى منحى آخر، وستسلمني الحياة دورًا لم أكن جاهزًا له بعد؛ دور الابن البار الصالح. انصرفت إلى عملي بعد أن طلبت من جارتنا أن تعتني بأمي لحين عودتي؛ لأتفاجأ بأمرٍ لم يكن بالحسبان أيضًا؛ هناك شكوى مقدمة ضدي من قبل أحد المراجعين بتقاضي رشوة من العملاء، وعلى أثرها كنت سأحال إلى لجنة تحقيق؛ لكن المدير أخبرني أنه سيتغاضى هذه المرة فقد عمل اعتبارًا لمعرفته السابقة بوالدي ونزاهته واستقامته. فهل كل شيء حولي تآمر على خروجي من لعبة الشيطان سريعًا، دون أن أتقدم ولو لمرحلة واحدة أخرى فيها؟! هل الظروف ستجبرني أن أعود أدراجي إلى حيث

أنا.. إلى استقامة جادة حياتي؟! فلا مزيد من الاختبارات، بل هنا حيث تطبيق المسلمات والنظريات فقط. يبدو انه كان علي ذلك فعلا؛ لكي أستطيع أن أخرج من الأمر بأقل خسائر ممكنة.. طوال يومي لم يكن عندي الرغبة للتحدث مع سعيد كثيرًا.. وفكرت مليًّا أن أطلب النقل من القسم الذي يعمل فيه؛ فوجوده لم يكن يلائم مرحلة الإلزام والالتزام التي سأشرع بدخولها.

المحطة

في الصباح، ركب سيارته وانطلق، شغل الراديو، كانت محطة تذيع بعض الأخبار، حرب وقتل وضحايا، فلم يرق له أن يبدأ يومه بهذه الدموية، فغير المحطة ليسمع بعض الأغاني التي يرفّه بها سمعه ويُرَوّق بها مزاجه في بداية اليوم....

الجميل أنه اختار من هذه الحياة ما يحب أن يسمعه واختار لنفسيته الجزء الذي يناسبها.... ولكن المفارقة القاسية تكمن في أن الحياة في مختلف شؤونها والواقع بكل ثقله لا يعطيانا دائما هذا الحق في تغيير المحطة إلى محطة أخرى تناسبنا وتريحنا اكثر... ولا يمكننا دائما أن نختار من حياتنا الجزء الذي فقط نفضله لنعيشه والباقي بكل ببساطة يمكن أن نرفضه... كما يحق لنا أن نختار من بين قنوات التلفاز أو الراديو ما نشاء..

إنسان عصري

يدخل على جميع وسائل التواصل الاجتماعي.. يقرأ النكات... يشارك بالتعليقات.. وكذلك بالمحادثات... يشرب قهوته.. يُرِفّهُ

مزاجه بسماع الأغاني.. ويتناول ما لذّ من المأكولات والتسالي.. وكذلك بنفث دخان الأرجيلة.. ينهي يومه.. وهو لا يزال عاجزاً عن نسيان همومه... وتجاوز أزماته وإيجاد حلول لمشكلاته، وحتى لم يعثر بعد على سعادةً لروحه المستهلكة أو راحةً لباله، ولا يزال لا يستطيع أن يجد حتى ضالته.. يبحث عن شيء ما في مكان ما في عالمه العصري المزدحم بالخيارات.. يبحث عنه بين كَوْمةِ أشيائه، (تطبيقات هاتفه، وجباته، قنوات تلفازه، دخانه، أماكنه الترفيهية).. ليبدأ يوماً جديداً.. ورحلة بحث جديدة أو رحلة ضياع.. يبدأها بفنجان قهوة على صوت أغنية.. وتبدأ الدوامة من جديد...

النصف الآخر

هذا العالم يغرق نصفه الأول في بحر ألمه وأوجاعه ومعاركه وأحزانه ومآسيه، بينما يرتاح نصفه الآخر على كرسي هزاز.. ينظم شعرًا يعبر عن القهر عبارات وخواطر في القسوة والشقاء؛ حتى إذا أصابه الضجر رفّه عن نفسه ببرامج ترفيهية متنوعة، يختار منها ما يشاء من وقت لآخر حتى لا يمل أيضًا.. ويحتسي

قهوته بنكهة الثقافة تارة وبنكهة الروقان تارة أخرى، أو على ارواح الغارقين...

يقظة

استيقظ من النوم متأخراً عن العمل فلعن المنبه الذي لم يوقظه، ركض إلى المطبخ ليصنع قهوته فانسكبت منه القهوة على أرض المطبخ فلعن الحظ وشتم القهوة، في طريقه إلى عمله اصطدم بجزءٍ من سيارته بشجرة، فبدأ يشتم سيارته ويسب الشجرة ويلعن الحظ.. أراد أن يتصل بالميكانيكي ليأتي ويرى إن كانت السيارة يلزمها تصليحاً مستعجلاً فاكتشف أنه نسي هاتفه.. حينها أخذ نفسًا عميقًا كأنه أفاق للتو من نومه، وقرر أن يقدم اعتذارًا إلى حظّه وكذلك إلى سيارته والشجرة، وإلى القهوة والمنبه أيضاً، فلم يكن خطأ أي منهم.. وقرر أن يقوم هذه المرة بشتم نفسه...

عازف الخيبات

في ساحة كبيرة في وسط المدينة وقف جورج يحمل بين يديه آلته الموسيقية (القيثارة).. في الحقيقة جورج لم يكن عازفًا أبدًا لكنه تعلم العزف مؤخرا حين تقدم به السن ولم يجد عملًا؛ بالرغم من حصوله على مؤهلات علمية.. فأقبل يتعلم العزف ولا سيما أنه يعيش وحيدًا بعدما تفرقت العائلة بسبب ظروف المعيشة؛ فوجد نفسه بين المقطوعات الموسيقية، وبين الألحان التي بدأ يتعلمها لدرجة الإتقان.. وصارت قيثارته أقرب حبيبة لقلبه وافضل صديقة لروحه.. وما إن تمكنت أنامله من التراقص على أوتار آلته حتى وجد نفسه يحملها إلى ساحة المدينة منخرطًا في عزف ألحان تعكس أشجان نفسه بل أشجان مدينته كلها... كان كل من ينظر إليه يشعر بملامح حزن رسمتها سنواتٍ من الخيبة على وجهه، والتي كانت تؤيدها بقوة ألحانه الحزينة التي كان يبرع بتشكيلها ونسجها من خلال قيثارته..

في البداية وجد جورج تعاطفًا كبيرًا من سكان المدينة فكانوا يقبلون ملتفين حوله يستمعون لأشجانه وألحانه بكل حواسهم

ومشاعرهم... لكن مع الوقت لاحظ جورج أن الناس بدأت تتناقص من حوله وكأنه أصبح فاكهة انتهى موسمها او أصبح موضة ملابس صارت قديمة، فلم يعد يجد جمهورًا كما السابق؛ ولاسيما أن أحوال الناس في المدينة صارت تؤول إلى الأسوأ.. أدرك العازف جورج بحسه الموسيقي المرهف كمَّ المعاناة التي يعيشها جمهوره وأهل مدينته، وعلم أن الناس لا ترغب أن تستمع إلى ما يزيد وطء معاناتها ويضاعف كآبتها.. فقرر أن يحول خيبات المدينة إلى طرب ورقص، فكلما شعر بالخيبة عزف لحنًا جنونيًا ماجنًا.. أشبه بالموسيقى السريعة الراقصة.. وقف جورج في بداية النهار والسكان متجهون إلى أعمالهم يعزف لحنه الراقص.. فالتف المارون من الكادحين والعمال والموظفين حوله وشعور بالطرب والمجون يغمرهم، ثم انصرفوا إلى أعمالهم وهم يصفقون بأيديهم ويتراقصون بأرجلهم.. وفي المساء استأنف جورج عزف ألحانه الراقصة وصار الكل يغني ويرقص حوله، فتحولت ساحة المدينة إلى ساحة راقصة.. جورج الحزين حول خيباته وخيبات مدينته إلى ألحان فرح ورقص وجنون...

ديون

جلس الشيخ أمام منزله على مقعد الانتظار يرتقب قدوم:

أبناءٍ رباهم... أحفادٍ دللّهم... جيران ساعدهم... أطفال حي في أحد الأيام ببعض الهدايا واللمسات الحانية فرّحهم... رجال وأصدقاء جالسهم وفي أفراحٍ وأحزانٍ شاركهم..

فعل كل ما في وسعه ليسعد ويساعد الآخرين وهو لم يكن ينتظر المقابل.. بل بدافع العاطفة التي حملها في قلبه لمن كل من حوله.. لكن الوحدة والضعف التي تملكت روحه الآن جعلته يلتمس بعضًا من رد الجميل لصنائعه...

لم يكن يحسبها في الماضي لكن الآن مشاعر عجزه فتحت في ذاكرته دفتر حسابات قديم... وجد فيه ديونًا كثيرة لا يريد إلا استيفاء بعض منها ليشعر بقليل من التعويض أمام سنواتٍ من العطاء وإنكار الذات منصرمة... بينما هو غارق في حساباته وترقبه حطّت بجانبه حمامة بيضاء قادمة من سرب الحمام الذي حول منزله، والذي اعتاد في السابق أن يرمي له الحبوب ليطعمه.. شعر بالحمامة تنظر إليه بوداعة وبحب ممزوجين

بشفقة... أحس بها تكلمه... وكأنها تحدثه وتقول له :لا تنتظر أيها الشيخ المحسن كثيرًا، فديون الطيبين غير مسترجعة في هذه الدنيا...

شتاء العمر

هناك حيث الانهمار والشتاء والمطر...

هناك حين أهدت السماء قلوبهم غيثًا وهم قبلوا الهدية...

فارتوى قلباهما وانجلى ما بها من غضب أحدهما على الآخر وانجلت أيضا معها الأحزان والآلام... وكأن المطر قد قدم ليغسل ما عكرته أيامهم... فكان احتفالًا بالنسيان وبالمطر... ما أبرأ قلبيهما وقتها فقد كانا غضبيين طريين سريعًا ما تشفى ندوبهما... نسيا كل ما سبب أحدهم للآخر من ألم ومضيا يحتفلان... ضحكا كثيرا فرحًا وحبًّا فمراسم الشتاء في عرف البراءة تقتضي الكثير من الضحك... والقليل من الأحاديث الجدية الهامة... فقط مسموح المزاح وبعض من السخافات المضحكة... وعاد كل شيء كما كان إلى سابق عهده قبل الخصام والأذى... وكأن ألمًا أو غضبًا أو شقاقًا لم يكن..

نفس اليوم تكرر بأحداثه بعد مرور بضعة من الأعوام.. نفس الشتاء والمطر ونفس ما حلّ بهما من الألم والكدر أو ربما أكثر... لكن القلبين لم تعد تحييها مياه الأمطار... ولا حتى انهمار السماء

يرويها أو ينقيها.... ربما لأنه لم يعد بإمكانهما الاحتفال بالشتاء بعد ان ووسموا بصفة النضج.... تلك الصفة التي تسلبهم القدرة على النسيان.... وتمنحهم الكثير من الألم... وربما بسبب تلك القسوة التي أحالت روحيهما إلى أرض يابسة لا تبتلع الماء بسهولة ولا تنبت الزهر بيسر.. قسوة الأيام أو ربما قسوة الآخرين أو قسوتهما على نفسيهما...

كواليس الروح

وحيدة هي منذ زمن لا تذكر حتى كم هو تحديدا.. ربما يكون شهوراً أو ربما أسابيع.. تجلس على كرسيها الهزاز في شرفتها المطلة على الشارع.. لا تذكر حتى من زارها آخر مرة أو مع من تحدثت أو من شاهدت. هل أصاب عقلها الكبر أم أصابها الخرف؟!! لكنها لم تكن كبيرة في السن لهذا الحد؛ ولكن ذاكرتها أصابها الخمول منذ مدة، توقفت عن الاحتفاظ بالتفاصيل أو حتى استرجاعها... توقفت عن ربط الأحداث وأيضًا ربط الأشكال والصور. أصبح عقلها يشبه محطة راديو مشوشة انقطع عنها الإرسال وإن عاد أحيانا يعود ضعيفا غير واضح...

سكن بالشقة التي بجوارها جيران جدد، لم تكتشف ذلك بنفسها حتى عرّفت على نفسها جارتها الجديدة التي التقت بها في الشرفة المجاورة لشرفتها، بعد أن ألقت التحية. لم يكن في وسعها إلا ان ترد التحية وتقول لها باقتضاب وفتور: أهلًا وسهلًا..

منذ مدة لم تتعرف على أحد جديد أو حتى تلقِ التحية على أحد. حياتها أشبه ببيتٍ هجره سكانه، تقبع الأشياء في أماكنها منذ

زمن طويل، تسير على نفس الوتيرة والنمط، يستوطنها الرتابة والتكرار.

لكن إصرار الجارة على التعارف لم يُخْتصر على إلقاء التحية فقط والحديث الموجز من على الشرفات، بل تجاوزه إلى طرق الباب أيضاً ومحاولة الدخول في تجربة الزيارات الصباحية وكذلك شرب القهوة معها.

أصرت الجارة على تكرار المحاولات بالرغم من ملاحظتها كمية الانعزال التي قد أحاطت تلك المرأة بها نفسها؛ ربما لأنها لم تجد بديلًا آخر لها لتمارس من خلاله جانب حياتها الاجتماعي سوى التعارف على هذه المرأة المنطوية؛ فلم تكف عن تكرار المحاولات معها.

في كل مرة كانت الجلسات مملة والأحاديث يغلفها البرود والإيجاز. من الواضح أن العلاقة بينهما غير مرغوب فيها وبدافع الإحراج فقط.

هذه الجارة لم تكن تعلم أن المرأة قد طوت صفحة الثرثرات من حياتها، الثرثرات التي تستدعي استحضار التفاصيل والخوض في السير وقول الكلمات والجمل التي أغلبها لا يخدم صلب موضوع الحديث إنما مجرد رتوشات للتنميق والتذييل والتطويل، ويخدم

أيضًا في إضافة الصور الفنية وعناصر الإثارة. هذه المرأة اعتبرت كل ذلك كماليات تخلت عنها منذ زمن طويل. في آخر زيارة للجارة لها اكتشفت تلك المرأة أنه لايزال عندها رصيدًا متبقيًا من المجاملات؛ استخدمته بصورة غبية ومضحكة أيضًا. أحست أن غريزة الثرثرة التي في داخلها كأنثى بحكم الطبيعة قد استيقظت، أو ربما عاشت من جديد على يد هذه الجارة (المعشرانية).

ليس بالضرورة أن الثرثرة شيء سيء أو سلبي؛ بالعكس هو دليل الحياة عند السيدات؛ فلا تموت الأحاديث عند المرأة إلا وقد سبق موتها سلسلة جنائز أخرى؛ جنائز قلبٍ وروحٍ ومشاعر؛ وآخرها جنازة الذاكرة والذكريات. بدأت الحياة بالعودة لثرثراتها رويداً رويداً، لكنها لا تزال تبدو غريبة وليست على ذلك القدر من التسلية وتفتقد عناصر جذب الانتباه لمستمعها. كانت تعاني أحاديثها من وجود فجوات بينها. يظهر أن الجارة قد أثارت دافعاً عند تلك المرأة كي تخيط ما بين هذه الفجوات التي في عقلها وأن ترمم ذاكرتها من جديد. تماماً كمن كان في غيبوبة واستيقظ ليجد أطرافه مصابة بضعف في الأعصاب بسبب خمولها لفترة طويلة وبحاجة إلى علاج فيزيائي ليتمكن من الحركة. وبشكل مشابه فإن المهارات الاجتماعية في الشخصية تتطلب الممارسة لكي تصقل

وإلا فإنها ستضمحل وتتضاءل. قررت المرأة أن تنتبه للحالة الجوية في بداية كل يوم وتتابع أخبار الجو، وأن تتابع كذلك وصفات الطعام وأخبار المشاهير لتكون مادة جيدة تحشو بها أحاديثها مع جارتها.

في يومٍ، وفي الساعة العاشرة، استعدت لزيارة الجارة التي تأتيها كل يوم في مثل هذا الوقت، لكنها لم تأتِ هذه المرة. استغربت الأمر كثيراً. وقفت على الباب تترقب مجيء الجارة، فتحته قليلاً لتنظر ولكن ما لبثت أن سمعت صوتها تثرثر مع جارة أخرى في الطابق العلوي. أغلقت المرأة الباب، ثم ذهبت لتجلس في شرفتها كما اعتادت سابقاً. بدأت أنظارها تحوم في فراغ السماء الكبير. لم تكن تدرك الجارة حجم الدور الإنساني الذي كانت تقوم بأدائه في ذاكرة روح هذه المرأة وإلا ربما لم تكن قد تخلت عنه.

وهكذا عادت المرأة تعيد أشياءها إلى سابق عهدها من الرتابة والاعتيادية. وعادت بتفكيرها إلى نقطة اللاشيء التي لم تبتعد عنها كثيراً، وعاد التشويش مجدداً إلى ذلك العقل وإلى تلك الروح.

مهرجان الفصول

في أيلول... يكسو الأشجار صفرةً وتسقط الأوراق وتجف الأغصان... في أيلول يقول الصيف بكل مباهجه كلمة الوداع.. ونقف أمام النوافذ مساءً لتلفح وجوهنا بعض نسمات الهواء الباردة.. ربما تكون مرسالًا من الكون بأن مراسم قدوم الشتاء قد اقتربت بدايتها.. في أيلول تبهت ألوان الروح.. حتى في القلوب.. تخفت النبضات.. فكأن الكل في ترقبٍ وتأهبٍ للتبدلات الكونية العظيمة والانقلابات الموسمية التي على وصول.. فسنة الله قد جرت منذ الأزل.. بعد كل ذويٍّ وذبول ستكون مواسم الهطول.. التي يتبعها مهرجان الربيع البديع الذي يبدأ أولا بقرع نبضات القلوب عاليًا ويأذن بإزهار آخر لبراعم الروح وعودة الحياة لما يبس في الطبيعة حتى ذلك اليباس الذي في النفوس... هكذا يجري الأمر الكوني.. علينا أن نموت كي نحيا من جديد.. وربما تمنحنا الحياة شكلًا آخر لها... وعلى أوراقنا أن تسقط كي نكتسي بما هو أجمل.. فلا اكتساء بلا اعتراء ولا ابتداء بلا انتهاء...

أيلول.. بداية الطريق الشاق إلى المجد الأخضر..

ظهور الديناصور

في أول مواجهة لي مع الديناصور.. لم أتفاجأ به كثيرا... فقد رأيته كثيرا في أحلامي. ورأيت أشباهًا له من المخلوقات المخيفة في أرض الواقع.. لذلك بدا ظهوره مألوفًا.. وهكذا بدأت معركتي معه في صَوْلٍ وجَوْلٍ.. ركضت كثيرًا دون أن أتعب حتى؛ فقد مارست الركض سابقا هربًا من وحوش أخرى... وهكذا أنهكت قوى هذا الحيوان الضخم بكل شجاعة واستبسال وأنا أراوغ منه يمينًا وشمالًا.. حتى فقد توازنه من كثرة الكر والفر... ثم رجع أدراجه من حيث أتى.. وبعدها بدأت أنا بأخذ نفس عميق لأستريح من مشقة المعركة... وبدأت أتأهب لمواجهة أخرى فلربما يعود الديناصور في يوم آخر أو قد يظهر التنين...

غريب في بيتنا

جاء الغريب إلى بيتنا وما صان حرمة البيت ولا حرمة أهله... قال لنا أنه حسب أحد الأساطير الموروثة البالية أحق به منا، وأنه اشتراه من أحدهم بموجب سند مندثر، تعجبنا من أمره فكيف يُشترى شيء من غير مالكه؟!!.. جاء الغريب وصار يريد ان يقاسمنا الخبز والماء... قاسمنا حتى محصول الحقل... لبس ثوب الوقاحة بجدارة... فصار يترك لنا الفتات... وصار ينازعنا في بيتنا ويريد أن يطردنا منه.. والأكثر تبجحاً من ذلك حين أخبر العالم أننا نحن المعتدون الظالمون وهو الضحية... وحين قاومنا هذا الاغتصاب حجب عنا الشمس وعذبنا وشردنا... ولجأ إلى الشيطان وجنده.. أقام له على أرض بيتنا مرقصاً.. وقدم له من دمائنا قرباناً... فصاروا يجتمعون في جحور الأفاعي ليدبروا لنا

المكائد والمؤامرات... ويزوروا التاريخ ويتفننوا باختراع أدوات القذارة والدناءة لإبادتنا ومن أجل أن ينكروا حقنا... ويثبتوا صحة أكاذيبهم...

ولأننا نريد أن نبقى ونريد أن نحيا في بيتنا بحرية، ولأننا نريد لأبنائنا أن يحفظوا حقنا وحقهم في هذا البيت وعلى هذه الأرض؛ كتبنا على الجدران قصتنا... وصنعنا من صكوك ملكيتنا الحقيقية نُصباً وشواهد... ورفعنا أعلاماً من أوراق التين وأغصان الزيتون..

قاومنا هذا العدو الغريب بالحجر فواجهنا بالدبابة والمدفعية... نريد منه الرحيل وهو يريد لنا الإبادة الجماعية... لكنه استشاط غضبه علينا أكثر وأكثر حين بدأت أرضنا تلفظه، والأشجار صارت تركله، والسماء فوق بيتنا غدت في كل وقت تلعنه.. وحتى الهواء بات يخنقه... تواطأ هو مع الشيطان.. وصار ينجب له أبناءً... أما نحن فكانت أشجارنا تظللنا وترابنا يحضننا، وسماؤنا تباركنا... وحتى الشمس فوقنا أهدتنا من شعاعها مصابيح شديدة الوهج... نحرق بها الظلم ونحوله رماداً ننثره في عيون الغاصب ليتخبط تائهاً شارداً تلاحقه اللعنات إلى يوم الدين، يلعق وحل خيبته، يجر أذيال عار جرائمه، راحلاً عنا للأبد...

عناقيد عنب

* لا شيء يشبهك سوى عنقود عنب

* ألم تر بيني وبين الجمال علاقة سوى ذلك العنقود؟!!

* بل رأيت، ولكن عينيك الخضراوين جعلاني أربطك كثيرًا بعنقود العنب، فحين أعود من المغترب صيفًا وأجلس تحت دالية منزل جدي؛ أشعر ببرودة الظل تسري في جسدي وأشعر بذلك الاحتماء اللذيذ من الحر.. تمامًا كجلوسي معك وأنتِ تظللين قلبي بنظراتك التي اكتست بعشب عينيك الأخضر وعبراتك المنبعثة من خضرة قلبك.. وما زالت تعويذة حبك الخضراء تحميني من كل أذى..

وحين أبدأ أنظر إلى تلك العناقيد المتدلية.. يفتنني منظرها وقوامها ولونها المريح للنظر.. ويأسرني ذلك الارتفاع والعلو فيها فهي ليست سهلة بمتناول أي أحد.. فمن أراد وصولها.. عليه أن يتعب.. فما أشبهها بتمنعك وتفردك...

* قد قلت صيفًا من قبل، فهل ارتبطت ذاكرتك بي وأفكارك عني بالصيف فقط!! هل أنا بالنسبة لك مجرد فاكهة موسمية؟!!

* أبدًا لا.. بل إني أشعر بالحنين وبالشوق لذلك العنقود حين أراه في عينيك.. فما أجمل تلك اللهفة التي تكون بالرغم من القرب..

* وشيء آخر!!

* ماذا؟!

* سخية أنتِ في عطاء قلبك ومشاعرك كما تجود تلك الدالية بالعناقيد.. يأكل منها أهل البيت وحتى المغتربون.. فأنتِ كالوطن...

عناقيد العنب في بلدي لا تشبه أي عناقيد.. ودالية منزل جدي جذورها قوية تتمسك بذرات تراب أرضنا وأغصانها تتسلق إلى الأعلى، فلا يعادلها شموخًا ولا كبرياء.. فأنا أعود إلى الوطن.. عابرًا بحار عينيك.. أشق طريقي إليه في مروج روحك...

* إن كنت كل هذا فلست أمانع أن أكون عنقودك الأخضر..

* بل أنتِ أكثر..

واقع في هيئة كابوس

يا صغيري... لا تخف.. لا تهرع... إنه مجرد كابوس.. فأمك لم تمت.. ولا والدك ولا أخوتك.. ولم يتحطم منزلكم ويتحول إلى ركام... هيا استيقظ من كابوسك فالطعام اللذيذ الساخن الذي أعدته لكم والدتك بانتظارك... وخارجاً في حديقة بيتكم ينتظرك إخوتك ليلعبوا معك فهناك أرجوحة التي نصبها لكم الوالد بين شجرتي التين... وهناك دراجة تتناوب أنت وأخوتك في ركوبها واللعب عليها... هيا لتلعب وبعدها لتهنأ بحمامك الدافئ الذي تحضره لك أمك في كل يوم وبتلك الملابس المعطرة النظيفة... وعندها ستسمع أهازيج أمك التي تداعب بها آذانك ومشاعرك الطفولية... لا تقلق يا صغيري إنه مجرد كابوس مزعج مرعب...

ليلة عيد

في وسط الحطام ستجدون حذائي للعيد، نمت في ليلة العيد وأنا أحلم أني ألبسه وأتباهى به كالأميرات، إذا بحثتم جيدًا بين الركام قد تجدون أشلاء حلمي...

الوجع الزائر

زُرتَنا يا وجع مساءً فأبكيت أحلامنا وأدمعت مقلنا، وأدميت فينا الأفئدة وأقلقت علينا المضاجع..

زرتنا يا ألم صباحاً فما عاد لقهوتنا طعم.. وما عدنا نرى من الصباح سوى أنه وشاح أبيض نلف به اشباح احزاننا إذا ما بزغ الفجر...

زُرَتنا يا قهر في كل وقت.. فما عدنا نتبادل النكات... وذبلت ابتساماتنا... وماتت ضحكاتنا.... وسُرقت منا أفراحنا..

فمتى سترحلين عن أيامنا أيتها الغصات؟!!!

ألا نستحق النجاة من ظلام الحياة؟!! ألا تليق بنا فراشات الشمس؟!!... ألا نستحق لوناً في هذا الكون غير السواد؟!!

القلب الباكي

لا يزال القلب باكيًا

منذ كم؟!!.. لم أعد أتذكر...

فقد أصبحت كثيرة القرع لبابه هي الأحزان.. وصارت جدًا طويلة هي الأيام... لم نعد نعلم بدايتها من نهايتها.

وكأن الحزن يطيل الوقت، ويشوش الذاكرة، ويطمس ملامح الزمن، ولا يبقي للروح سوى الوجع...

غياب الورد

في زيارة لي بعد طول غياب لقريتنا قرية (الدحنون) الواقعة على ربوة عالية.. والتي طالما عرفت بطبيعتها الخلابة وزهورها المتنوعة؛ صدمني تصحر أرضها وقلة ورودها بل وندرة بعضها بالرغم من حلول الربيع، فقد شحت ورود الزنبق الأرجوانية الفاتنة، واختفت ورود التوليب البيضاء، وكذلك زهور النرجس الحمراء الجذابة ليحل مكانها نبات الصبار.. عند زيارتي للجدة مكرم؛ أقدم ساكني القرية؛ سألتها عن السبب فقالت: قد رحل شباب القرية يا ابنتي من أجل الحرب أو قضوا بسببها.. وبقين الفتيات والزوجات يعانين الوحدة ويكابدن وطأة الحرب بمفردهن.. فمن أجل من ستنبت الزهور؟!.. إن الورد يا بنيتي لا يزهر إلا في أرض الحب.. فاختفى في المكان.. حين اختفى الحب.. وحل مكانه صبار الحرب... غادر الرجال لعدة أسباب يجمعها الحرب جميعًا.. إما للاغتراب من أجل لقمة العيش فالأوضاع الاقتصادية صارت أكثر صعوبة على أثر الحرب.. أو بسبب أنهم أن بعضًا منهم أُعتقل والآخر أُستشهد.. إن الورد لا تزهر إلا في تربة تسقى أرضها بماء

الفرح والمحبة... أما وقد تلوث هواء قريتنا بأحزان ونكبات الأحداث وأصبح أهلها يتنفسون هما وأرقًا وكمدًا حتى أرضها الخصبة الخضراء المتلونة المتوردة تحولت إلى تراب وحجارة.. تمامًا كقلوب ساكنيها.. وهل ستنبت الورود والنساء قد أقفرت قلوبهن من لوعة الانتظار ومن مكابدة الأيام والأحوال؟!! وهذه النرجس الحمراء قد ذبلت وهي بانتظار أحد شباب القرية أن يمر ليقطفها لإحداهن.. وتلك الزنبقة الصفراء قد تعطشت لكلمات مكاتيب الحب السرية التي ترافقها... المكان يا ابنتي يشبه نفوس وقلوب قاطنيه... فلا تتعجبي إذن من غياب الورد ومن كثرة الصبار..

رفيقان على موعد

قد كان يوم من أيام الشتاء القارس، مطرٌ غزير، وحلٌ وطين، شيء يشبه الكابوس، لكنه لم يكن كابوسًا أبدا، بل كانت الحقيقة التي ما كنا نغفو عليها جميعا حتى نصحو لنعيشها من جديد.. لحظات يومية من أوجاع البرد وأمراضه وضراوة الجوع وقسوته تمر علينا كأنها شهورًا ودهورًا.. انتشر المرض هنا في المخيم بسبب البرد وخاصة بين أقراني من الأطفال... كنا أنا ورفيقي نلعبُ دائما بالرغم من كل شيء.. صنعنا لأنفسنا عالمًا خاصًا يمنحنا القوة لننتصر بها على ظروف مخيمنا.. كان الدفء يخيم على قلوبنا الصغيرة ونشعر بأمان كلما اقتربت أجسادنا النحيلة بجانب بعض.. كنا لا نزال نجد للسعادة سبيلًا لأرواحنا بالرغم من كل مرّت بهِ من أهوال الحرب والتشريد.. ربما كان عزاؤنا الوحيد في ذلك أننا لا زلنا مع بعض ولم يفرقنا شيئا إلى الآن...

اشتد الجوع كثيرًا علينا في المخيم وكذلك البرد، ورفيقي ذو الجسد الضعيف أصابه المرض حتى اشتد عليه، كنت أنتظر في كل يوم خبر شفائه من والدته، فقد منعوني من زيارته، فقط كنتُ

أريد أن أقول له أننا إذا عدنا إلى منازلنا الأصلية في وطننا سأعطيه لعبتي التي كان يحب أن يلعب بها كلما كان يأتي لزيارتي؛ لكنه فارق الحياة ولم يتسنّ لي حتى أن أقول له كلمات الوداع الأخيرة...

هل مات حقًا؟!!. هل سيتركني أواجه قسوة الشتاء بمفردي؟!. فلم يكن أحدٌ مثله يمنحني القوة. نعم؛ قد رحل للأبد وسيتهدم مع رحيله عالمنا الوردي الصغير الذي كنا نملؤه بالألعاب الخيالية والقصص المخترعة التي كنا نخترعها لبعض لنضحك عليها سويًا ونتسلى بها طوال الوقت.

سمعتُ من جدتي أن الأطفال يلتقون سوياً في الجنة، فتمنيتُ اللحاق به قريبًا، بل ورجوت الله كثيرًا ليحقق أمنيتي، والتي لا بدّ أن رفيقي تمناها من قبلي حتى يرتاح من ألمه وجوعه ووجعه. فلجأتُ إلى زاويتنا الخاصة بالمخيم التي كنا نقضي بها معظم وقتنا وأحسستُ بروحه تحوم في المكان؛ فوعدتُه بيني وبين نفسي أني سأراه قريبا، ولم أعلم أن أمنيات الأطفال سريعًا ما تتحقق.

في اليوم التالي، غرقت خيمتنا، وفارقت أنا الحياة، لستُ أدري ما سبب وفاتي أهو لأن جسدي الضعيف لم يتحمل قسوة البرد؟!! أم لأن مستوى الماء كان قد ارتفع ولم أجد شيئا يحميني منه أو

مكانًا أختبئ فيه؟!! لكني لم أكن خائفًا أبدًا، فقد رأيت نفسي أركب قاربًا جميلًا، لم أركبه في حياتي من قبل، وأعبر نهرًا، على ضفته الأخرى، كان يلوح لي رفيقي بيديه، وكأنه بانتظاري، وبجانبه أطفال في مثل سننا يبدون سعداء، وأنا أجدف سريعًا حتى أصل إليهم، قد كنتُ سعيدا جدا أنا أيضا..

أمي التي كانت تحاول حمايتنا من الماء أنا وأخوتي، عجزت عن إنقاذي. ذُعرت أمي كثيرًا حين رأتني لا أتحرك، لا أتنفس، وأيضا أتجمد. صرخت أمي كثيرًا وبكت كثيرًا. سامحيني يا أمي لأنني قد تمنيتُ الموت لنفسي لكنني مع رفيقي على موعد...... الوداع

كلمات متقاطعة

دخل الرجل على محل شرب القهوة (الكوفي شوب)... يحمل أوراقا كثيرة لعلها تخص عمله... ما إن انهمك الرجل في قراءة الأوراق حتى جاءه النادل يسأله ماذا يريد أن يشرب.. أجابه بامتعاض: أريد قهوة.. انصرف النادل منزعجاً من امتعاض الزبون الذي لا مبرر له برأيه، ثم دخل لإحضار القهوة.

كانت الأوراق كثيرة.. تبدو حسابات أو ما شابهها.. يبدو أيضًا أنها تحتاج لكثير من الجهد والتركيز... دخل النادل لإحضار الطلب وبدأ يحدث نفسه: كم هو مَهينٌ أصبح العمل في هذا المحل.. زبائن متعجرفون ومسؤول شديد المراقبة، كثير التنبيهات وتوجيه الملاحظات، وكأن النادل شخص لا يستحق الاحترام وعليه بلع الإهانات سواء من مسؤوليه أو من زبائن المحل، على أية حال العمل كنادل لشاب يريد أن يؤمن مصروفه الشخصي لا تتوفر له بدائل كثيرة في زمننا الحالي.. بعدها بقليل سُمِع صوت الرجل الزبون مرتفعًا يبدو أنها زوجته التي تتحدث معه.. وكأنها تسأله عن سبب تأخير عودته للمنزل.. وكأنه أيضا قد تأخر عليها

بإحضار بعض المتطلبات الأساسية للمنزل وللأولاد... فأجابها بعصبية أن لديه الكثير من العمل الذي يحتاج إلى هدوء يفتقده داخل البيت، وأنه مهدد بالفصل من عمله إذا لم ينجزها.. وهكذا أنهى المكالمة في حالة من عدم الرضا لزوجته المنتظرة.. سمعته سيدة كانت تجلس في المحل.. كان على طاولتها كيسًا كبيرًا يبدو أنه كيس أدوية ومغلفًا يبدو أنه يحتوي على صور أشعة.. صوت الرجل المرتفع كان مزعجًا لها لدرجة أنها وضعت يديها على أذنيها ثم على رأسها وهي تتمتم يا لهذا الصداع الذي لم تعد ينفع فيه أقوى المسكنات.

جاء النادل يلبس وجه الابتسامة بالرغم من ثورته الداخلية على وضعه وقدم القهوة وهو مجبراً على إبداء اللطف والدماثة..

شرب الرجل قهوته متذمرًا.. فحجم الفنجان المقدم للزبون قد تضاءل في هذا المحل... فبدأ يحدث نفسه: تبّا للغلاء الذي أجبر المطاعم والمقاهي على تقليص وتقنين خدماتها لزبائنها لأبعد حد... مع أن الزبون يدفع أثمانا مضاعفة لقاء تلك الخدمات البسيطة... أنهى قهوته وشعر بالإرهاق الشديد من كثرة العمل المتواصل... فقرر الانصراف بعد ما دفع الحساب بامتعاضٍ واضح.. وانصرف هائمًا على وجهه من شدة التعب.. كان عليه

أن يقطع إلى الجانب الآخر من الشارع.. فالمدينة أصبحت مكتظة جدًا بالسيارات فلم يعد الاصطفاف بأمر سهل في أي مكان يرتاده المرء داخل المدينة.. وهكذا بدأ بعبور الشارع وهو في حالة من الإعياء التي أفقدته الوعي في منتصف الطريق... تفاجأ سائق سيارة الأجرة بسقوطه أمام عجلات سيارته... فزع السائق من هول منظر الرجل المستلقي. كان ذاهباً ليدفع ما عليه من التزامات واستحقاقات تخص سيارة الأجرة لولا هذا الحادث المفاجئ.

صار يضرب الكفين وهو يقول لنفسه: لا حول ولا قوة إلا بالله

من أين أتتني هذه المصيبة؟!!..

عملٌ وضغوطات.. نادل وفنجان قهوة وغلاء... زوجة وأولاد ومتطلبات.. صراخ وصداع.. ازدحام وإعياء.. فقدان وعي وسيارة أجرة وسائق.. كثيرة هي التقاطعات في هذه المدينة... كلعبة كلمات متقاطعة لا متناهية...

طيفٌ زائر

كانت ليلة مختلفة، فقد شعرتُ أنا وأخي بدفء عجيب يعم البيت..... نعم فأمي زارتنا مساءً ونحن نائمون... أشعلت لنا المدفأة قليلاً لتُدفأ المنزل، ولفت أغطيتنا بإحكامٍ حول أجسادنا الصغيرة، شعرتُ بيدها الناعمة تداعب خصال شعري، وأحسستُ بها تجلس عند رأسي، تتأملني وتتأمل أخي؛ لتلاحظ كم كبرنا وتغيرت ملامحنا منذ أن توفت وغادرتنا...

في الصباح، وجدنا أكواب الحليب الساخنة تنتظرنا على الطاولة، نظرتُ إلى أخي وابتسمتُ فقد تأكدت من زيارة أمي؛ لكنني شعرت بقليل من الخجل منها ومن نفسي لأننا لم نغسل أطباق العشاء قبل أن ننام.

كنتُ سعيدة للغاية طوال اليوم، وحين سألتني صديقتي عن سر سعادتي، أخبرتها أن طيفاً عزيزاً كان في زيارةٍ لنا ليلة أمس، لم تفهم صديقتي ما كنتُ أعنيه، ولم أوضح لها الأمر؛ فقد تعودت ألا أقول لأحد عن سرٍّ بيني وبين أمي، إنما اكتفيت أن أبقى مبتسمة كلما تذكرت....

قصاصات

* في زاوية من زوايا الروح... أجلس كل يوم على أرجوحتي.. أتأمل كيف ألّون العالم بريشتي... فلم نخلق لتتشابه لوحاتنا مع الآخرين... أو لنرى الأشياء بنفس العيون....

* في صباحٍ جميلٍ... مختلف.... حيث كانوا هم فيه آخر اهتماماتي وليسوا من أولوياتي.... صباح مختلف كانت فيه نفسي سيدة الموقف والحضور... صباح مشرق... تشرق فيه شمس حريتي من حصار عقولهم... لتتوج ملكة على مملكة الذات...

* في قلعة الأحلام يسكن الحالمون.. يرسمون لوحاتٍ بفرشاة خيالهم وينسجون أثوابا من خيوط افكارهم.. أحلامهم تستيقظ في المساء... الحالمون لا ينامون

* كم كانت ودودةً... تنفث الفرح في جوانب وجداني... تهمس الطمأنينة في قلبي... كنت أراها بعيون الشعور وأسمع صوتها

الحاني... كنت أحسبها ملاكًا يسكن في داخلي، لكنه لم يكن سوى حديث روحي لي..

* ويحدث أنك تهرب من كل شيء.. إلى كل شيء آخر.. وتنجح لبعض الوقت.. ولكن ثمة عائق يقف لك هناك معترضًا طريقك.. ليخبرك بأنك لن تستطيع الإفلات مهما فعلت..

لعلها هي نفسك..

*** أولئك الذين نظرنا إلى العالم من وراء نوافذهم المعتمة لم يجعلونا أن نبصر من الحياة سوى تلك الألوان الداكنة وأشباح الظلام..

*** كل الذين مكثوا ينتظرون قدوم قطار التغيير... ظلوا عالقين مكانهم.... ما تغير فقط هو أعمارهم..

*** نعلم أننا دائما نخسر ما نراهن عليه... ونراهن وفي كل مرة ونحن متأكدون من خيبة جديدة... لسنا أغبياء لهذا الحد لكننا

كالغريق الذي يتعلق بقشة.. وهو يعلم أن القشة لن تنجيه.. لكنه يعيش حياته كتجربة محاولة نجاة من الغرق..

** عجباً لأمر ذلك الأعمى الذي كان أول ما فعله حين أبصر قام بكسر عصاه التي كانت ترشده وقت عماه..

** ليت أنّنا ادخرنا شيئاً من ضحكاتنا في الطفولة لسنوات ألمٍ عجاف...

** في داخلي جزيرة.. لا يقطنها أحد.. وحدي أنا أسافر إليها بروحي.. حين أريد أن أختلي بأحلامي... ألملم أجزائي... أرمم صدوع قلبي.. أرتب بعثراتي.. أستعيد أمنياتي.. وأعيد الحياة لرفاتي... أسميتها جزيرة العودة من الموت...

** كنت أريد لي مساحة صغيرة من فرح... كوخاً صغيراً تسكن فيه سعادتي

كنت أريد أن أتمسك بغيمة من حب تحلق فوق ما يكدرني... كنت أريد فقط أن أنجو.. أن لا اخسر كل رهاناتي دفعة واحدة.. أن أتظاهر قليلا بالضحك فأسرق ضحكة من الأيام أجعل منها سيفا أهزم به اليأس لو لمرة واحدة.... كنت وكنت... ولكن عبثاً ما أردت وما حاولت.. فلم يكن إلا سرابًا أسميتها يوماً احلامي.. وهي ليست إلا أضغاث أوهام..

** لستُ أنا.. إنما هي الخيبات والانكسارات، ومحاولات نجاة تتلوها محاولات، والانتصارات، ورصيد ملونٌ بألوان الحياة والذكريات... لستُ أنا... إنما هي تلك السنوات....

** وكمحاولة نجاة أخيرة أحب نفسك كثيراً في المرة القادمة...

** من يحبونك حقا سيقرؤونك من بين السطور..

سيسمعونك في الضجيج ..

سيلمحون صورة وجهك في الظلام.. ويتقصون أثرك في الرمال...

** كل الذين يخشون الغرق لا يغادرون شطآنهم..

المشهد الأخير

قدم ورقته الأخيرة... اكتملت لوحة حياته التي رسمها بسنين عمره... فقد جفت ألوان روحه وتضاءلت أقلام عقله...لم يعد بوسعه أن يلونها بالمزيد أو أن يضيف عليها خطوطا أخرى.. فلا يهم إن كان راضيا بها أو لا.. فانتهت فرصته في تعديلها.. والآن عليه أن يسلمها لتعلق في بورتريه البشرية الكبير...لا مزيد من الأحلام الوردية فقد ولى زمانها.. عليه أن يرتب جميع أوراقه المبعثرة هنا وهناك ويسلمها... بدأت الستائر تسدل على الفصل الأخير.. فلا مزيد من التوقعات أو التنبؤات ولا مزيد من الأحداث التي يمكن أن ينتظرها لتشكل مشاهد أخرى على مسرح حياته.. تمت أنصبته وحظوظه من كل شيء... قُضِيَت حظوظه أيضًا من الحب والصداقة والسعادة والحزن ومن الدمعات والضحكات والنجاحات والخيبات.. حتى النظر للوراء لن يجديه نفعًا.. فقط يحق أن يكون له مشهدًا ختاميًا مختصرًا قصيرًا يعيش فيه بعضًا من مشاعر الامتنان للبعض، وكذلك بعضا من الندم والحسرة على الماضي ورغبة مختنقة بائسة بإصلاح بعض الأمور أو

تغييرها.. قوة خفية تسحبه إلى حافة الأشياء.. ومن الأفضل له أن يصل إليها بنفسه مستجمعًا ما بقي من جسارته.. نقطة وضعت في السطر الأخير في كتابه.. فلا كلمة يمكن أن توضع بعدها تستحق القراءة أو حتى الكتابة.. ربما ما يجب الآن أن يخطه بيده وبكل شجاعة هي كلمة واحدة فقط (النهاية)...

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة........................	٥
رسائل إلى صديق..................	٧
حقيبة الذاكرة	٢٠
أبحث عنك........................	٢١
الأدوار المتبادلة..................	٢٤
سطوة الحزن......................	٢٦
في حضرة الغياب..................	٢٧
الحطام..........................	٢٨
الرسمة المبتورة..................	٣٠
البحث عن نرجس..................	٣٢
أرواح مبعثرة....................	٣٦
أحزان أنيقة......................	٤١
السيدة زينب.....................	٤٢
المحطة..........................	٤٧
عازف الخيبات...................	٥٠

ديون........................	٥٢
شتاء العمر	٥٤
كواليس الروح....................	٥٦
مهرجان الفصول....................	٦٠
ظهور الديناصور.....................	٦١
غريب في بيتنا......................	٦٢
عناقيد عنب........................	٦٤
واقع في هيئة كابوس..................	٦٧
الوجع الزائر......................	٦٨
القلب الباكي......................	٦٩
غياب الورد......................	٧٠
رفيقان على موعد..................	٧٢
كلمات متقاطعة....................	٧٥
طيف زائر........................	٧٨
قصاصات........................	٧٩
المشهد الأخير......................	٨٣
الفهرس........................	٨٥